

المشترك الإنساني: رؤية إسلامية

لا جدال في أن العالم الغربي حقق طفرة كبيرة في سباق المعرفة وعلوم التقدم، وأحرز منجزات مادية هائلة على طريق السبق الصناعي والعلمي والتكنولوجي، وهو بذلك ملك ناصية القوة المادية في جوانبها المتعددة وأخصها أسلحة الدمار الشامل، والفضاء والمعلوماتية، ولا يزال السباق المادي على أشده ينطلق بسرعة فائقة يجرف في طريقه كل شيء إلى حد أنه يدمر من يعوقه أو يوقفه من أجل المزيد من السيطرة والتغلب، والوفرة والانتصار.

لكن هذا الاكتساح المادي كان على حساب الإنسان نفسه، قيمه الروحية، وسموه المعنوي، وأخلاقه الحضارية، يتجلى في حشد هذا العالم المتقدم كل قواه لتعظيم تفوقه في مجال المادة والمحسوس، وانطلقت أصوات المفكرين وأقلامهم للتنظير لهذا الاتجاه، وتكريس الوحشية والقسوة المادية إلى حدودها القصوى، وأنانيتها المفرطة.

وكان من الطبيعي في أجواء كهذه أن ينحسر الإيمان، وأن تتوارى الفكرة الصحيحة عن الإله الحق الذي جاء به الإسلام والأديان السماوية فأصبح الواقع في الغرب كما يقوله هوفمان^(١) الدنيا محور الحياة عديمة الإله، وظهر فيورباخ، وماركس، ونييتشه، وفرويد، رسل اللادأريه، إن لم يكن الإلحاد، وتمادى المذهب الكمي الذي لا يعترف إلا بما يمكن قياسه بالحواس، بينما أصبح الإيمان بإله مجرد احتمال يمكن التسامح

(١) الإسلام كيديل، تعريب عادل المعلم، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ١٩، ٢٠.

فى قبوله طبقا لسوينبرن، ولكن لا يجوز التفكير أو الاقتراب من القضايا الفكرية العليا، ويعزى الفضل فى ذلك لأعمال مثل سحر خضوع الموت (فرويد) إن كان فى ذلك فضل.

ويمضى قطار أوربا الزاحف على هذا الطريق ليكرس تراجع الإيمان، يزرى بالروحانيات، ويقصى ذلك التسامى المعنوى الذى يتغلغل فى جنبات الإنسان، وربما يلغيه، ومن ثم إذا كان صحيحا أن العالم الغربى حقق حضارة مادية زاهرة وقدرة علمية ومعلوماتية فائقة، فإنه فى الوقت ذاته يعانى بامتياز من إفلاس أخلاقى، وفقر روحانى، وتراجع إنسانى يوشك أن يحدث كارثة يتعذر تقدير مداها.

هذا الواقع المعيش فى الغرب، صار من معالم الحضارة الغربية، مرده أن العقل والحدائثة بديلة عن الإله والإيمان، وهو اختلاف أيدولوجى صارخ، يتصادم مع أصول القرآن وحقائق الإيمان: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلُهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣].

ومنبع الإشكالية فى علاقات العالم الغربى مع العالم الإسلامى، تكمن فى أن المسلم لا يصح إسلامه إلا بإيمانه الكامل بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، ويبقى هذا الاعتقاد الشامل لدى المسلم متجزرا لا ينفك عن كيانه وإن ضعف لسبب أو لآخر، وهو ما لا يرضى عنه العالم الغربى، بل ينظر إليه باعتباره أصولية إسلامية ورده عقلية وحدائية لا تتفق مع أيدولوجيته المعاصرة.

فى ضوء ذلك، يرى العديد من المسلمين كما يقول فولر، وليس^(١) أن المشكلة المحورية بشأن الغرب هى - تحديداً - أنه نأى عن مثله العليا الدينية والأخلاقية التى يتفق كثير منها مع الإسلام. وبدلاً من ذلك فإن أهل الغرب، الذين اعتبروا أنفسهم يوماً أنهم مسيحيون أولاً وأساساً قد ابتدعوا ثقافة علمانية حديثة، هى الآن فى عيون المسلمين ثقافة مريبة، بعد أن افتقد فى ظاهر الأمر المبادئ الأساسية للمسيحية ونحت الأخلاق فى مجال السلوك الشخصى. ويمكن القول تحديداً إن تصدير هذه اللاأخلاقية الغربية، كما تبدو فى ظاهرها، هو قوام الخط الثقافى المتوهم والذى يتهدد المبادئ الأساسية التقليدية للمجتمع الإسلامى.

إن الخطر الذى يستشعره المسلمون من جراء ذلك يكمن فى المساعى الغربية المتواصلة لتتشويه الإسلام وطمس معالمه، وقهر المسلمين حتى فى داخل أوطانهم وحصارهم بالمنجزات الغربية ثقافياً، واقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً، وعسكرياً، اعتماداً على ما يمتلكه العالم الغربى من قدرات وآليات وأسلحة لفرض أيديولوجيته ونظامه على عالمهم، فى ظل الضعف والتخلف الراهن الذى يعيشون فيه.

إن نظرة الريبة والالتباس، وحتى العداة المهيمنة على العلاقة بين المسلمين والغربيين، ينبغى أن تتضافر الجهود الجادة لدى الطرفين، لرأب الصدع وإزالة سوء الفهم، وتصحيح الصور المغلوطة على الجانبين، بهدف الوصول إلى تعايش سلمى إنسانى.

وفى هذا السياق تأتى أهمية عرض أهم معالم الإنسانية فى الإسلام التى جاء بها الإسلام الجامع الأديان كدين عالمى اختتم به الخالق عز

(١) الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة، ترجمة شوقى جلال، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص ١٨، ١٩.

وجل الرسائل السماوية واكتملت به حلقة الديانات الإبراهيمية ، ومن ثم يبقى الإسلام نهاية المطاف لهذه الأديان ، حرص منذ البداية على الوفاق لا الاختلاف ، وعلى إزالة سوء الفهم ونبذ الكراهية بين أتباع الأديان لا يقيم خصومة مع أحد ولا يكره أحدا على اعتناق عقيدته ، الأمر الذى يجعل الإسلام دين يجمع بين البشر لا يقيم حواجز بينهم ، يتكامل مع غيره من الأديان ، ويقارب بين أتباعها .

ونعرض فيما يلى آلية للتقريب وتبديد الشكوك والشبهات :

حتمية الحوار لتصحيح المفاهيم المغلوطة بين أتباع الأديان والثقافات

يأتى البحث عن الحوار الخلاق فى إطار الجهود الجادة التى تضطلع بها المؤسسات المسئولة المعنية بقضايا الأمة المهمومة بالدين والوطن بتفعيل الحوارات بين أتباع الأديان والثقافات من أجل خلق فهم أفضل وتصحيحا للمفاهيم المغلوطة المتعلقة بالقضايا ذات الاهتمام المشترك فى الدين والحياة ، بغرض تجنب الصدام والصراع الذى يكتوى به عالمنا اليوم وتهيئة الظروف لقيام عالم أكثر تسامحا ، وصولا إلى تصحيح المفاهيم الحقيقية عن الإسلام والأديان وإزالة أسباب سوء الفهم والصراع الذى طالما عانى منه البشر ، وتسبب فى نشوب الصراعات والحروب ، دون شروط مسبقة أو انحياز للاعتقاد السديد ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٤] .

فما زال الاعتقاد السائد بين الغربيين أن الإسلام دين استعماري توسعي انتشر بقوة السيف منذ أن وطأ المسلمون أرض الأندلس ، وحاصر الأتراك أسوار فيينا ، وشاع فى الأوساط العالمية أن المسلمين إرهابيون وأصوليون ، ويرفضون الآخر ، وأن المسلمين يعبدون محمدا ، وعلى الجانب الآخر فإن

هناك صورا مغلوطة لدى بعض المسلمين عن المسيحية مثل الاعتقاد لدى البعض بأنه يجب محاربة المسيحيين لمجرد كونهم مسيحيين، وأنهم بهذا الوصف أعداء للمسلمين، وأنه يجب الجهاد لمجرد هذه المخالفة فى الدين إذ يحق لنا محاربتهم ومقاتلتهم بحسبانهم من الكفار، مع أن علة القتال فى الإسلام الحاربة بسبب مهاجمتهم لنا وغزوهم لبلادنا، وليس لمجرد المخالفة فى الدين. كما أن صورة أتباع كل دين لدى الآخر هى جد مشوهة وبغيضة، منطلقها العداوة وسوء الفهم، وهى صور مجسدة فى نظرة الغرب للإسلام.

مرتكزات منظومة المشترك الإنسانى

أسس الإسلام منظومته العقدية والتشريعية والأخلاقية والحضارية، على مرتكزات إيمانية تشكل مجتمع المؤمنين بما يرسى المعانى الإنسانية التى ينبغى أن تهيم على العلاقات بين البشر على اختلاف انتماءاتهم ومعتقداتهم بما يبقى على هذه المعانى الإنسانية أيا كانت الصراعات ومهما تعددت الرؤى والأفكار، ونستجلى بعض جوانبها، وهى جديرة بإبرازها فى ظل المسخ المشوه الذى تتعرض له بفعل النظرة الغربية المنحازة ضد الإسلام والمسلمين، وطرح مفاهيم ورؤى جديدة لحضارة الغرب الحديثة.

١- البشر خلق الله يتمتعون بالإنسانية، وهم شركاء فى الكون باعتبارهم خلفاء عن الله فيه

لعل نقطة البداية فى المفهوم الإسلامى عن الخلق أن البشر جميعا عباد الله، وأنهم يتمتعون بوصف الإنسانية، وهم شركاء فى الكون خلفاء

عن الله فى الأرض، بغض النظر عن اختلافهم فى العقائد والأجناس والألوان، وهم يتعاونون فى إعمارها وتنميتها، وأنه مهما كان هذا الاختلاف ودرجته، فإن الكل خلق الله إليه مصيرهم وهو الحاكم بينهم، يفصل فى أمر اختلافهم، لبيان ما كانوا عليه من صواب أو خطأ فى هذه الحياة، ومن ثم لا سبيل لاستعلاء فريق على آخر. ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١٠].

وهذا إقرار بحق الاختلاف واعتراف بثقافة التعدد، وما يترتب عليه القول بان للجميع حقوقا وعليهم واجبات وبأن، لهم خصوصيات ينبغى احترامها، وعدم فرض ثقافة أخرى عليهم أو إبداء أى اعتراض على تلك الخصوصيات^(١).

٢ - اعتراف الإسلام بالأديان الإبراهيمية ونداؤه العالمى للاجتماع على كلمة سواء

إن الإسلام هو الدين الذى يقبل الآخر، وتتسع آفاقه للتعايش مع المعتقدات والأديان الأخرى، فهو يعترف بالأديان الإبراهيمية المسيحية واليهودية، وأنها أديان إلهية تنبع من مشكاة واحدة، وهى والإسلام من عند الله، وهو لذلك يطلق نداءه الخالد بالانضواء تحت رحاب الإيمان والالتقاء على كلمة سواء، وسلوك طريق التعايش بديلا عن الصدام والرفض والصراع، وها هو القرآن يقرر ذلك بجلاء فى دعوته إلى أتباع الأديان السماوية:

(١) سعيد إسماعيل على، الإسلام والغرب، تعايش أم صراع؟ عالم الكتب، ٢٠٠٧م، ص ٢٩٣.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٤].

كيف يمكن الاستجابة لهذا النداء الإلهي الذي يلتقى فيه المسلم مع اليهودى والمسيحى على الإله الحق، بينما عبدت أوروبا فى القرن العشرين - قرن العلم والتكنولوجيا - أصنامًا جديدة: القوة، الجمال، الشعبية، الجنس^(١).

٣- رحابة المنظومة الإسلامية لقبول الأديان غير السماوية

إن مساحة قبول الآخر، ودائرة التعددية والاختلاف بين البشر ليست مغلقة فى نظر الإسلام ولا قاصرة على الأديان السماوية وحدها، وإنما تمتد لتشمل عموم الناس أتباع الديانات والمعتقدات الأخرى، حتى تلك المغايرة للإسلام والأديان الإبراهيمية، وأن أمرها مفوض إلى الله، وأتباعها مقبولون عنده لهم الأجر والثواب، وقد يكونون من جماعة المؤمنين الذين يكتسبون بسلوكهم وصف العمل الصالح المستحقين لرضا الله والفوز بنعيمه فى ميزان القرآن، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيَّةَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٢]. وفى موضع آخر يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّبِيَّةَ وَالنَّصْرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة الحج: الآية ١٧].

(١) مراد هوفمان، الإسلام كيديل، مرجع سابق، ص ٢٠.

وبذلك يكون مآل الاختلاف فى العقائد، وتقرير المقبول منها وغير المقبول مرجعه إلى الله خالق الجميع، المعبود بحق دون سواه، وأن الشراكة الإنسانية تقتضى التواصل والتحاور معهم باعتبارهم يشكلون نصف البشرية، وهذا ظاهر فى توجيه الخطاب إلى الناس، بقوله تعالى فى غير موضع: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١]. ودلالته أنه لا يجوز احتكار الحقيقة، ووصم المخالف باستحقاق النار والتحدث نيابة عن الله عز وجل فى أمور من أخص خصوصياته تتعلق بأمر الحساب والفصل بين المتخالفين، إذ إن كل ادعاء يفتنت على الحق الإلهى يمثل خروجاً عن المقررات الإسلامية، من شأنه أن يخل بحقائق الدين ومصحة النوع الإنسانى.

٤- المؤمن بالإسلام ليس محمدياً وإنما هو مسلم يعبد الله رب العالمين

إن الإيمان فى الإسلام، والانتماء إليه إنما يكون لله تعالى، وأن من يعتنق هذا الدين ليس له إلا انتماء واحد نابع من هوية الإسلام، وهو يسمى مسلماً لأنه أسلم وجهه لله، وهو يعبد الله ولا رب له سواه، وأن المسلمين لا يسمون محمديون، وإنما هم عباد الله، والقرآن صريح فى قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨].

والرسول ﷺ هو القائل: «أنا عبد الله ورسوله.. وإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد». والقرآن يتوج ذلك بوصف الرسول ﷺ بالنبوة والبشرية بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠]. وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ

الرُّسُلُ أَفَايِنُ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبَتْمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴿﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤]، وكلها دلائل ناطقة على أن محمداً - صلوات الله عليه - بشر اصطفاه الله للرسالة.

٥- تكامل إيمان المسلم فهو لا يكون مسلماً إلا بالإيمان بسائر الرسل والكتب والأديان السماوية

إن المسلم يؤمن بالله خالق الكون الواحد الديان، وإيمانه لا يكتمل ولا يكون مقبولاً إلا بالإيمان بكافة الرسل والكتب السماوية والتوراة والإنجيل والزيور والقرآن والملائكة، وأنه لا يفرق بين أحد من رسله، كما يؤمن بالحساب والقضاء والقدر، ويستشعر المؤمن في كل مشاهداته اليومية وجود الله من خلال كتابه المسطور، وعبر كونه المنظور، وتمثل فروض العبادة من الصلاة والزكاة والصوم والحج حقوقاً لله تعالى وواجبات على الإنسان الوفاء بها، لأنها أوامر إلهية، تستوجب طاعتها، على أساس أنها تبين صحيح الدين وتجلي حقيقة الإيمان. وهو ما يفتح مجالاً للتآخي الإيماني، والوفاق على المبادئ العامة للدين، وهو أعظم مظهر للتعايش والتسامح بين أتباع الأديان، من منطلق أنها نابعة من كون الجميع خلفاء عن الله تعالى، وهو ما يقيم رابطة عامة بينهم، ويجعل بعضهم سندا للبعض الآخر.

٦- الناس متساوون في الإنسانية، ومكرمون في الإسلام

الناس سواسية في الإسلام في أصل الخلق، فهم أولاد لأب وأم واحد، لا فرق في ذلك بين فرد وفرد، وأمة وأمة، وجنس وجنس،

ودين ودين، بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِلْدٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً^٤ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء: الآية ١].

يؤكد هذه الحقيقة قول الرسول - صلوات الله عليه - «الناس سواسية كأسنان المشط»، وقد أشار الرسول ﷺ في فتح مكة إلى ذلك بقوله: ألا إن كل ماثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب، وتلا قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣].

وبموجب ذلك فإن التقارب والتآلف بين الناس يكون من أسس الاجتماع في الإسلام، وأنه لا تفرقة ولا تمايز بينهم في أن كلا من المجتمعين أعضاء وجزء رئيسي في هذا المكون الاجتماعي.

ويتبع هذا ويتمخض عنه، تقرير الكرامة لكل إنسان بصفته الإنسانية بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٠]. وعلى هدى هذا، فإن دعاوى حرمان البعض من حقوقه الطبيعية، وهى حقوق الإنسان يكون غير جائز، ويُعد انتهاكا لمبدأ المساواة والكرامة، وهو حجر الزاوية فى بنية الاجتماع البشرى فى كل العصور.

٧- ثبوت التكريم والاحترام للأدمى حال الموت كحال الحياة

إن تكريم الفرد فى الإسلام مقرر، فوجوده محل احترام فى كل الأحوال، يتجاوز كل دعاوى العنصرية والعصبية واللون.. إلخ.

ولا امتياز في ذلك للمسلم على غير المسلم فهم في حق التكريم سواء، وربما تبرز أهمية حرمة الآدمي حالة الموت، خاصة في القتل والتنكيل وهو ما يحدث في الحروب والصراعات، والأحقاد الكامنة في بعض النفوس، وتعاني منه البشرية في الوقت الراهن.

ويوجه الإسلام إلى رفض أى مسلك في تجريد الإنسان من التكريم، وانتهاك حرمة بدعوى أنه غير مسلم، بل إنه يعتبر المحافظة على هذه الحرمة حكما قطعيا ثابتا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٠]. مما يجعل حق التكريم وحماية هذا الحق، ينظر إليه كحق خالص لغير المسلم بمقتضى إنسانيته. وهو ما روى في موقف الرسول ﷺ عندما مرت عليه جنازة اليهودى، فنهض لها واقفا فقال له بعض الصحابة: إنها ليهودى، فقال: «أليست نفسا». ودلالة هذا الصنيع النبوى تتجلى في المسلك الذى يدل على التوقير للنفس البشرية مجردة عن أى اعتبار آخر، وأن هذا حق ثابت لكل نفس فى كل حال، كما يعبر عن استنكار وتخطئة لمن اعتقد أو فهم غير ذلك.

٨- التعايش بين المسلمين وغير المسلمين بموجب التعارف الأسمى والبشرى

إن البشر إنما خلقهم الله ليتعايشوا ويتعارفوا، وليس ليتصارعوا ويتقاتلوا، لكن الحاصل أنه عندما يحتدم الخلاف ينكر كل فريق على الآخر الحق فى الحياة أو الحرية أو يحتكر الحقيقة أو يستأثر بخيرات وموارد الرزق وأسباب الحياة ويحرم الآخرين منها، فهذا انحراف عن

منهج الله ومعاندة لنواميس الكون لا يستقيم به وجود، ولا يحقق به الخلافة التي أرادها الله وخلق من أجلها الإنسان، وهياً له الكون وسخر له هذا الوجود وإنما يجعل الاجتماع الإنساني محكوماً بشريعة الغاب. وعلى كل إنسان أن يدرك هذه الحقيقة المقررة أن البشر وجدوا ليتعاشوا، وهذه الآية تبرز دستور التعايش الإسلامي: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣]. ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢].

وقد وجد هذا النموذج في الالتقاء بين المسلمين والأسبان في الأندلس وكان وراء التعايش والتكافل بين الثقافات الإسلامية والمسيحية في أسبانيا^(١)، الذي استمر فترة غير قصيرة من الزمان.

٩- العقل هو مصدر القوة المفكرة، ومنبع الملكة المحصلة للعلم

العقل في الإسلام يتبوأ منزلة ملحوظة في أصول الاعتقاد والتشريع، وهو سبيل التقدم، ومصدر العلم، وحفاوة الإسلام بالعقل والدعوة إلى التفكير والنظر لا يعدله دين آخر، إيماناً بأن العقل هو الجوهرية النفسية في الإنسان، ومظهر تميزه وآية فخاره، والمستقرى للنصوص يواجه بكم وافر من الآيات الحاثثة على التفكير والنظر والاعتبار: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٣]. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢].

(١) حسن حنفى، الثقافات صراع أم حوار، المؤتمر الدولي حول الحضارات أم حوار الثقافات، منظمة تضامن الشعوب الإفريقية والإسلامية، مارس ١٩٩٧م، ص ٥٤ - ٥٩.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٩٠]. ومن يتأمل مغزى هذه الآيات وهي تبلغ العشرات، ويدرك هذه المنزلة الرفيعة للعقل بوضوح كأصل من أصول التفكير في الإسلام، وأن دعوة الإسلام في هذا السياق هي انقلاب فكري لا شبيه له قصد به تحرير العقل من الأغلال وتوظيفه في معرفة الله والاستدلال به على المنهج الإلهي الصحيح، والارتقاء بهذا الكون وعمران الأرض.

١٠- العقل أداة التكليف في الخطاب الإسلامي

وكان من الطبيعي إزاء ذلك أن يكون العقل هو أداة التكليف في الخطاب الإسلامي منط المسئولية، وأن من لا عقل له لا تكليف عليه، وربما يفاجأ البعض ببعض الأحاديث التي تقرن العقل بالدين وتعتبرهما صنوان، وهي وإن كانت ضعيفة إلا أن معناها يتوافق مع الدلالات القرآنية في هذا المجال مثل حديث: «الدين هو العقل، ولا دين لمن لا عقل له». في الوقت الذي ذكرت فيه دائرة معارف القرن التاسع عشر على لسان بعض قادة الأديان في الغرب: «اطفي مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى». وهو كلام يصطدم مع جوهر تمييز الإنسان وأخص خصائصه وآية فخره بإعمال ملكة العقل المفكر لبلوغ كل إنجاز وبدونه لم يتمكن من بلوغ ما حققه من تقدم علمي وتطور تكنولوجي في العصر الحديث، فضلا عن أن التهوين من دور العقل يتناقض مع أصل من أصول الإسلام، لا يجوز إهداره، يقول ابن رشد^(١): ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع، إن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل

(١) فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، ١٩٩٥م، ص ٣٦.

العربي ، وهذه القضية لا يشك فيها مسلم. وما أعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجربه وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول أساس ذلك أن من المقرر في أصول هذا الدين: النظر العقلي لتحصيل الإيمان، فإن أول أساس بنى عليه الإسلام كما يقول: محمد عبده هو النظر العقلي، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن لسلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه^(١). وشاهد ذلك نصوص القرآن، فإنها مليئة بإثارة العقل، وهمة القلب: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [سورة محمد: الآية ٢٤]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [سورة طه: الآية ٥٤]. وأولى النهى هم اصحاب العقول السديدة، فهم أهل الاعتبار. ﴿أُولَئِكَ كَانُوا لَكُمْ آيَاتٍ لَّا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٠].

وهو ينعى على صنيع هؤلاء الناس الذين عطلوا عقولهم، وساروا على نهج الآباء، وتقليدهم، معرضين عن استخدام العقل وسيلة رشدهم، ومصدر هدايتهم.

ومما يقطع بحقيقة دور العقل وقيمته في الإيمان والتكليف، ما تقرر في الشرع، أنه لا تكليف بغير عقل، ولا مسئولية دينية أو دنيوية عنمن فقدته أو نزل به آفة، وفي الحديث: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، عن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق».

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مكتبة صبيح، ص ٥١.

وهو دليل ناهض على علو مكانته في نظر الإسلام، إذ ما خلق الله شيئاً في الإنسان أكرم من العقل.

والفرق بين مكانة العقل في الإسلام، ودوره في الفكر الأوربي الحديث، أن العقل الإسلامي هو المنضبط بحدود الشرع، وأنه العقل الرشيد لا العقل المنفلت، لذلك ينبغي عدم تغييبه وتفويت ملكته الواعية بالسكر أو غيره، إذ يعاقب على ذلك في أحكام الشرع.

هذه النقطة يختلف فيها الإسلام عن المنظور الغربي الذي يعلى العقل ويرفعه إلى مصاف الإله، ولا يحده بحدود أو يقيدده بضوابط فهو صاحب سلطان مطلق، كما أن المباح والمشاهد كثرة وقوع إنسان المدنية الحديثة في الإغراق في السكر، وتعاطى المخدرات، وهو مسلك يؤدي إلى تعطيل هذه الجوهرة النفيسة وابتدال ما يجب صيانتها والمحافظة عليه.

١١- إنسان الإسلام هو المحب لإخوانه في الإيمان بالله وفي المشترك الإنساني، يبر بهم ويعدل معهم

يربى الإسلام الإنسان على المحبة والألفة، وليس الكراهية أو النفور فهذه دعامة متينة لإقامة صرح الفرد والجماعة والناس.

وتبدأ هذه المحبة والمودة في العلاقة مع الله الخالق: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥].

وفى تربية أصحاب الرسالات والهداة: كما فى وصف الله تعالى فى نعمته على موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلَئِنْ لَمْ تَنْصَحْ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [سورة طه: الآية ٣٩].

وليسست هذه المحبة قاصرة على هذه الدائرة، إذ إن الأسرة المسلمة تتأسس على المودة والتماسك: ﴿ وَمَنْ عَائِلَتِهِ إِذْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ [سورة الروم: الآية ٢١].

والمحبة أساس في بناء مجتمع الإيمان، بقول الرسول ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١).

وهو تكليف حرى بكل مسلم وكل فرد أن يتخلق به وأن يترسم خطاه، لذلك كانت قطيعة الرحم من أشد المنكر، وفيها تحذير قاطع: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢٢) ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ [سورة محمد: الآيات ٢٢-٢٣].

وإنسان الإسلام عضو في الجماعة العامة، وهو لبنة طيبة وصرح نافع في الأمة التي ينتمى إليها، والأسرة الدولية التي يتعامل معها فى أرجاء العالم من حوله، فهو مدعو إلى البر بالمخالفين له الذين لا يناصرونه العدا ولا يضمرون له الكيد: ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة المتحنة: الآية ٨]. وهو مأمور بإشاعة الأمن والانضواء فى

مسيرة السلم: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَآفَّةً ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٨]. والأمان هو مقتضى الإيمان: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ (٣) ﴿ الَّذِينَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [سورة قريش: الآيتان ٣ - ٤]. وبه تتحقق العمران وخلافة الإنسان لله.

(١) رواه البخارى ومسلم.

ثم إن المسلم مباح له أن يصاهر غير المسلم ويتزوج غير المسلمة ويحسن إليها، ولا يضييق عليها في دينها، وإنما يتواصل معها ليكون أولاده نتاج هذا التزاوج الإنساني، ويتكامل كل منهما مع الآخر.

ثم إن هذا الإنسان ينتصر للخير، ويحارب الشر، ويجاهد في الحياة، وينشد مجتمع الرحمة والفضيلة، وهو جلد وصبور على مشاكل الحياة، مستعد لمواجهة صعابها لا يعزل عنها ولا يهرب منها ومسلكه في ذلك، كما في الحديث:

«المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على آذاهم خير من المؤمن الذى لا يخالط الناس، ولا يصبر على آذاهم»^(١). الأمر الذى يجعل المسلم إيجابياً في مجتمعه يتحلى بالجلد والصبر وصولاً إلى رقى هذا المجتمع وتقدمه، وبلوغه إلى الرفعة فى الدين والدنيا.

١٢- الاجتماع البشرى أساسه الأخوة الإيمانية والإرث المشترك للإنسانية

الاجتماع الذى ينشده الإسلام، هو اجتماع إنسانى مؤسس على الإخوة، أخوة الإيمان، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٠]. وأخوة الإنسانية هى أخوة أساسية أخرى تعبر عن القاسم المشترك بين المسلم وغير المسلم. فالإنسان كما يقول الإمام على: إما أخ لك فى الدين، أو نظير لك فى الخلق. والمجتمع فى الإسلام هو مجتمع الرحمة رحمة الإنسان بالإنسان بصفته الإنسانية المجردة، بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧]. ومن تجليات الأخوة ما جاء فى حديث: «لا يدخل الجنة إلا رحيم، أما

(١) البخارى، صحيح البخارى، كتاب الأدب المفرد.

إنها ليست برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة»^(١). فهي إذن رحمة تعم الناس جميعا وتظلهم ظلالها الوارفة ، ولا تنحصر في المسلم ، فمن حصرها في المسلم ، فإن فهمه سقيم وعليل ، لا يعبر عن صحيح الإسلام . وآية ذلك أن ، الخطاب للبشرية هو خطاب رئيسي في صميم البنية الأساسية التي تستهدف إصلاح وصالح الفرد ، وهدايته إلى طريق الحق ، وإعمار الكون ، وتحقيق سعادته في الحياة الآنية ، والحياة الآجلة بمقتضى الخلافة المقررة لكل إنسان . وهذا ملحوظ في العديد من النداءات القرآنية للناس ، نسوق منها قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [سورة يونس : الآية ١٠٨] .

ومن ثم فإن الإنسان هو البصير على نفسه ، ويقرر أمره ، وهو مدعو إلى سلوك طريق الهداية والرشاد ، ونحسب أن لا أحد يختلف عليه .

(١) رواه البيهقي .